

**أثر الشريعة الإسلامية**  
**في**  
**القانون الدولي العام**



## أثر الشريعة الإسلامية في القانون الدولي العام

دكتور / عبد الغني محمود (\*)

### مقدمة :

يكاد يجمع الغرب - في أوروبا وأمريكا - على أن المبادئ الأساسية لقواعد القانون الدولي العام حديثه العهد لا ترجع إلى ما قبل القرون الأربعة الأخيرة حيث بدأ الاهتمام من جانب الدول الأوروبية لتنظيم علاقاتها على أساس من القواعد القانونية الثابتة. والصحيح أن معظم هذه المبادئ وغيرها مما لم يتعرض له القانون الدولي الحديث - واردة في أحكام الشريعة الإسلامية، قد نزل بها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وكانت علاقات المسلمين أفراداً ودولة بغيرهم من الشعوب والدول الأخرى - في زمني السلم والحرب - تخضع لقواعد مفصلة مستمدة من القرآن والسنة، واطرد اتباعها في جميع العصور الإسلامية، على النحو الذي سنوضحه فيما بعد، ولعل لفقهاء الغرب ومفكره بعض العذر لما كان عليه بعضهم من جهل بأحكام الشريعة الإسلامية في هذا الصدد، ولما كان عليه البعض الآخر من عقيدة بأن القانون الدولي يجب ألا يمتد نطاقه إلى غير الدول الأوروبية ومن شايعها من الدول المسيحية المتمدنة، فلم يدخلوا الدول الإسلامية ضمن جماعة الدول المتمدنة إلا أخيراً.

ولا يجوز - في شريعة الإسلام التي تتسم بالعدل والإنصاف - أن نتعصب نحن بدورنا فننكر أن بعض القواعد الدولية قديم يرجع إلى العصور

الغابرة، ذلك أن الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع أن يحيا في عزلة عن بني جنسه، والصلات القديمة بين الدول والشعوب والأمم في حالتها الحرب والسلم والوسائل التي اتبعتها في حل المشاكل والمنازعات التي تنشأ بينها هي الأصل في نشأة قواعد القانون الدولي العام .

ونعرض لنشأة قواعد القانون الدولي في العصور المختلفة بشكل سريع على النحو التالي:

## ١ - العصور القديمة :

كانت الصلات بين الوحدات الدولية — في ذاك الوقت - قاصرة على الشعوب المتجاورة، فإذا تحسنت الصلات فيما بينها قامت علاقات التحالف والصداقة، وإن ساءت وقامت الحرب، فإما أن تنتهي - الحرب بغلبة إحداهما وإخضاعها الأخرى، وإما بصلح على شروط معينة . . . وفي كلا الحالتين ( السلم والحرب ) نشأت بعض القواعد، وبتكرارها بين الدول بدأت تستقر على أنها عرف دولي .

وقد عرف المجتمع الدولي القديم هذه القواعد في عهد الفراعنة في مصر وفي عهد الإغريق واليونان، وفي عهد روما الأول، وفي عهد الإمبراطورية الرومانية الأولى .

## ٢ - العصور الوسطى :

يمكن تحديد هذه الفترة من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م إلى استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية، عاصمة

الإمبراطورية الرومانية الشرقية سنة ٤٥٣ م. ويذهب البعض إلى أن العصور الوسطى تمتد إلى نهاية القرن الخامس عشر .

وظهر الإسلام في القرن السادس بعد ميلاد المسيح وكان نظام الإقطاع منتشراً في أوروبا، كل أمير يملك قطعة منها بما عليها من أفراد وممتلكات. وكانوا يتزاحمون على السلطان فكثر بينهم الحروب وتفتت الإمبراطورية الرومانية الأخيرة، وأذهلت الفتوحات الإسلامية في سرعتها واتساعها أمراء وملوك أوروبا ودفعتهم إلى التكتل، ونبذ معظمهم ما بينهم من أسباب الفرقة والشحناء، وتوحدت إلى حد ما مصالحهم .

**أثر الديانة المسيحية في تطور القانون الدولي العام في أوروبا :**  
انتهزت الكنيسة المسيحية - وعلى رأسها البابوات - الفرصة لكي تكون لها الرئاسة على إمارات أوروبا - ليست الدينية فحسب ولكن أيضاً الدنيوية - وانتشرت عادة تنصيب الملوك بواسطة البابا، وساعده على ذلك ما أذاعه من وجوب محاربة الدين الجديد " الإسلام " والقضاء عليه . وكان تهديد البابا لمن يشذ عن سلطانه من الأمراء بالحرمان من الكنيسة عاملاً قوياً في توطيد سلطة البابا الرئاسية على الإمارات والدول الأوروبية . واتسمت تعاليم الكنيسة بروح السيطرة على العالم . وأخذت المجالس الكنسية تضع القواعد الدولية وتعمل على إيجاد أسرة دولية تجمع بين أوروبا الغربية تحت السلطة العليا للبابا، ومن القواعد الأخيرة التي وضعتها صلح الإله

وهذنة الرب<sup>(١)</sup> . وقد وضعت هذه القاعدة الأخيرة في القرن الحادي عشر الميلادي ومفادها: ألا يحل لمسيحي أن يحارب مسيحياً آخر من غروب شمس الأربعاء حتى مطلع يوم الاثنين . وشمل التحريم أيضاً أيام الأعياد، وفرضت الجمعية العامة لرجال الدين العقوبات على من يعصى هذه التعليمات . وكثرت المؤتمرات الدينية والدولية يدعو لها البابا ويحضرها الملوك والأمراء من دول أوروبا المسيحية. ولا نريد أن نقول إن تحريم الحرب في أوقات معلومة لدى المسيحيين مأخوذ عن الإسلام وإنما نريد أن نقرر أنه قبل أن تقرر المسيحية قواعد صلح الإله وهذنة الرب بخمسة قرون نزل القرآن الكريم بتحريم القتال في أربعة أشهر، منها ثلاثة متتالية تقع خلالها مناسك الحج ( ذو القعدة، ذو الحجة، والمحرم ) احتراماً لهذه الشعيرة وتأميناً للحجاج من مشارق الأرض ومغاربها في غدوهم ورواحهم، ورابع يتوسط باقي أشهر العام وهو رجب قال تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> . وقد ذكر الجصاص أن سبب

تسمية هذه الأشهر بالحرم لتحريم القتال فيها<sup>(٣)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدين المسيحي، وإن كان قد قرب بين

(١) أنظر المستشار على على منصور : الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، دار القلم، ص ٢٦ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٦ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص، ج ٣، ص ١١٠ .

دول أوروبا وساعد من ناحيته على وجود قواعد عامة تحكم صلات الدول، إلا أنه من ناحية أخرى كان يتعارض مع استقلال هذه الدول وسياستها في العصور الوسطى، بما كان للبابوات من سلطة روحية دينية على جميع الدول المسيحية تطورت إلى التدخل في شئونها وشئون الأمراء والملوك والدول مما حدّ من استقلالها وسيادتها .

### أثر الإسلام في القانون الدولي الأوروبي :

لسنا هنا، بصدد عرض أحكام القانون الدولي الإسلامي ولكن إبراز أثر الإسلام كعقيدة وشريعة وحضارة في القانون الدولي الأوروبي .

ونشير في البداية إلى أن الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالطبيعة البشرية تجد في هذا الدين ما يسد حاجاتها وما يشبع رغباتها، ومن هنا كان القرآن دقيقاً في تعبيره عندما قال جل شأنه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>، كما أن الإسلام دين الروح والجسد ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾<sup>(٢)</sup> وفي موضع آخر يقول جل شأنه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾<sup>(٣)</sup> فللطيفين حقه

(١) سورة الروم، آية ٣٠

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٢

(٣) سورة الحجر، آية ٢٩.

وللروح حقها، فمن حيث إن الإنسان خلق من طين يعطيه الإسلام حق التمتع بالزينة والطيبات من الرزق فله أن يأكل ويشرب ويلبس ويتنعم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (١) ومن حيث الروح أناط الله بالإنسان رسالة جعلها في عنقه وعليه أدائها، قال جل شأنه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢) كما أن الإسلام ينظر إلى الكيان البشري بكل ما يضطرم فيه من غرائز وميول، وشهوات وجوانب روحية، فلا يقف دون حاجتها، ولا يحول دون رغباتها، وإنما ينظم مجاريها السليمة، ويهذب من سلوكها لتكون بين ذلك قواماً .

فالإسلام يبيح الغريزة الجنسية بالطريق المشروع وهو الزواج ويرغب فيه، ويبيح الملكية الفردية بحدود مشروعة يحرم تجاوزها، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، وينيط بالإنسان مجموعة من التكاليف الشرعية إذا ما آمن به كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ويحفظ الإسلام للإنسان كرامته حياً وميتاً، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٣) ويعطي الإنسان حق الدفاع عن نفسه، ويعتبر

(١) سورة الأعراف، آية ٣٢ .

(٢) سورة النازيات، آية ٥٦ .

(٣) سورة الإسراء، آية ٧٠ .



من الحقوق المقررة شرعاً، وهو من الحقوق التي أقرها القانون الدولي المعاصر ولا يعرف الإسلام العقوبات الجماعية بل كل إنسان مسئول ومؤاخذ بفعله لا بفعل غيره قال تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾<sup>(١)</sup> ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾<sup>(٢)</sup> وبذلك وضع الإسلام المبدأ العام في المسؤولية القانونية، وأن الإنسان لا يسأل إلا عن فعله فقط .

وكان المولى جل جلاله - قبل الإسلام - ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرسل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشرية. وكل الأديان التي سبقت الإسلام لم تكن عامة بل كانت مخصصة بالمكان وبالقوم الذين نزلت عليهم، كقوم لوط، وهود، ويونس، وصالح... الخ، وقد شاركت هذه الأديان كلها في الدعوة إلى وحدانية الله كأساس للعبادة، ثم إلى قواعد أخلاقية وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب إلى أن كان القرن السادس الميلادي، حيث بلغت البشرية مبلغاً من التقدم والرقي وحسن الإدراك، أهلها لتلقى خاتم الرسالات السماوية، فكانت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - لخيري الدين والدنيا موجهة إلى العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

(١) سورة الأنعام، آية ١٦٤ .

(٢) سورة المدثر، آية ٣٨ .

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧ .

يَعْلَمُونَ ﴿١﴾. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٢﴾.

وبذلك فإن الإسلام دين عالمي لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وصالح لكل زمان ومكان، فلا يختص بشعب دون آخر ولا أمة دون أخرى ولا زمان دون زمان .

وإلى جانب عالميته فهو عام يشمل أمور الدين والدنيا، والمادة والروح، العبادات والمعاملات - كما سبق ذكره - فالمسيحية كما ورد في كتابها المنزل - وهو الإنجيل - لم تتضمن تشريع أمور الدنيا، ولا تنظم المعاملات والعهود بين الأفراد والدول، ولا تعداد ما في الكون من آيات طبيعية وعلمية . وهي وإن كانت قد وحدث بين دول أوروبا في العصور الوسطى وقربت بينها وحسنت علاقاتها، مما دعا إلى التعاطف ووضع قواعد لعلاقات دولية - كانت الأساس للقانون الدولي الذي اصطلح عليه بين تلك الدول - إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول والإمارات، والمفروض أن يكون روحياً فحسب، الأمر الذي اضطر شعوب هذه الدول والإمارات إلى القول بفصل أمور الدنيا عن الدين .

أما في الإسلام فالأمر على عكس ذلك، فهو نظام متكامل ولا يمكن فصل قواعده بعضها عن البعض، فهو دين ودنيا ولا يصح في شريعة

(١) سورة سبأ، آية ٢٨ .

(٢) سورة فاطر، آية ٢٤ .

الإسلام الأخذ ببعض الكتاب " القرآن " دون البعض. وفي مجال القانون الدولي العام أتى الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه علاقات الدول بعضها ببعض في وقتي السلم والحرب . ولكن القرآن على نهجه فيما يختص بأمور الدنيا يكتفى بذكر الأصول العامة، ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشري، احتراماً لهذه المنحة الإلهية ومسايرة لظروف الزمان والمكان وما تقتضيه من خلاف في الفروع .

وقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية في كتب السير والمغازي والجهاد وكتب التفسير في القواعد التي أرساها الإسلام في التعامل بين المسلمين وغيرهم في وقتي السلم والحرب .

ولما كان الإسلام يعتبر الناس جميعاً أخوة في الإنسانية فقد وضع العديد من الأسس التي تركز عليها العلاقات الدولية في زمني السلم والحرب، نبين بعضها فيما يلي:

### أولاً : الأصل في العلاقات الدولية هو السلم :

وإذ يقرر الإسلام أن السلم أصل من أصول العلاقات الإنسانية بين الدول لا يسمح للمسلمين أن يتدخلوا في شئون الدول إلا لحماية الحريات العامة، وعندما يستغيث بهم المظلومون، أو يعتدي على المؤمنين بالإسلام ديناً، فإنه يكون التدخل لمنع الفتنة في الدين. فالإسلام يحترم حق كل دولة في الوجود وحققها في أن تكون سيدة نفسها، وحققها في الدفاع عن أراضيها وسيادتها، ولا فرق في ذلك بين دولة متقدمة وأخرى نامية<sup>(١)</sup> .

(١) راجع العلاقات الدولية في الإسلام للمرحوم الشيخ / محمد أبو زهر، ص ٤٧ .

فالحرب في الإسلام لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى والضرورة تقدر بقدرها. وإذا اقتضت الضرورة الحرب فلا بد من إعلانها وعدم أخذ الناس على غرة، فإذا قامت الحرب فلا يصح قتل الشيوخ، ولا الأطفال، ولا النساء، ولا المحارب إذا نهزم وأدبر، ولا من سقط مريضاً، أو غريقاً أو أسيراً.

والرأي الراجح أن القرآن لم يسمح للمسلمين بمقاتلة أعدائهم إلا بعد أن بدعوهم بالعدوان وبعد أن تكرر منهم العدوان فالإسلام لم يبيح الحرب الهجومية وإنما أباح الحرب الدفاعية قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بغيرِ حقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. وحتى في ساحة القتال إذا توقف أحد جنود العدو عن القتال وطلب الصفح، والأمان فإنه يمنح الأمان لقوله تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾<sup>(٣)</sup> ويستوى في ذلك ما إذا طلب الأمان فرداً أو جماعة.

(١) سورة الحج الآيتان ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٣) التوبة، الآية ٦.

ويمكن أن نوجز أهم النتائج المترتبة على هذا الأصل - قيام

العلاقات الدولية على السلم لا على الحرب - فيما يلي :

١ - إن الحرب في الإسلام لم تشرع إلا لأنبيل الأغراض : فهي لم تشرع

إلا دفاعاً عن الوطن وإقراراً لحرية الدين واثقاء للظلم والعدوان .

٢ - أن الإسلام لم يقم بحد السيف، ولا هو في حاجة إليه لنشر دعوته

متى أفسح لها طريقها وإنما قام ويقوم بما في طبيعته من سلامة

ووضوح وقوة كان بها دين الفطرة حتى عند المنصفين من خصومه.

والواقع أن نصوص القرآن الكريم كثيرة وواضحة في عدم إكراه

الناس على الإسلام لقوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ

الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ فَذَكِّرْ

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾<sup>(٣)</sup> .

٣ - إن الإسلام قد وضع منذ أكثر من ١٤٠٠ عام الأسس اللازمة

لإصلاح نظام الحرب فحرم الإبادة والاستعباد، ولذة القهر، واستنزاف

الثروات، والإكراه على الدين ... الخ حدث هذا في الوقت الذي فيه

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦ .

(٢) سورة النحل، آية ١٢٥ .

(٣) سورة الفاشية، الآيتان ٢٢، ٢١ .

كانت الكنيسة في القرون الوسطى تكره الناس على الهجرة أو التنصر، وكانت تحتم على النصراني أن ينصر غيره أو يموت دون ذلك<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، فإنه وبعد أكثر من ١٤٠٠ عام أصبحت الحرب غير مشروعة في القانون الدولي المعاصر إلا دفاعاً عن النفس (م ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة) وقمعا للعدوان (الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة).

### ثانياً : التعاون بين المسلمين وغيرهم في شتى المجالات :

إذا كان المسلمون جميعاً يشتركون في الأخوة الإسلامية امتثالاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup>، فإن الإسلام ينظر إلى المسلمين مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى - أياً كانت هذه الأديان - باعتبارهم جميعاً أخوة في الإنسانية، مما يقتضي أن يتعاون الجميع على الخير والرفاهية للإنسانية جميعاً والنهوض اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً والاستفادة بتقنيات العصر فيما يفيد الدول جميعاً ويعود عليها بالخير، وإن اختلف الناس في الدين واللغة، أو الجنس أو الوطن ليس مدعاة للاقتتال ولكن يتعين توظيفه لخير الجميع، وبحيث تتكامل الشعوب اقتصادياً وثقافياً وحضارياً، قال

(١) انظر عبد الخالق النواوي، العلاقات الدولية والنظم القضائية، بيروت، ١٩٧٤، ص ١١٠.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٠.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>، ويقول جل شأنه : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وتحقيقاً للتعاون بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول - في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. الخ - وضع الإسلام قواعد للتعامل الدولي، وبالتالي أرسى القواعد التي تنظم إبرام المعاهدات وسريانها والوفاء بها وتبادل المبعوثين الدبلوماسيين والالتزام بقرمهم وحمايتهم حتى يعودوا إلى بلادهم بلا أدنى أذى ونوضح ذلك فيما يلي :

#### ١ - المعاهدات :

لم تعرف المعاهدات والمهادنات المكتوبة في الأمة العربية قبل الإسلام، على الرغم مما كان يقوم بين القبائل من حروب كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء . وكانت علاقات العرب في الجاهلية بجيرانهم من الفرس والروم على حال من التبعية لهم، كما حدث بين الغساسنة والروم من ناحية، والمناذرة والفرس من ناحية أخرى، وهي حال خفضت كثيراً من المناوشات التي كانت تقوم على التخوم . وهذه المناوشات - مع قيامها - لم تكن على صورة الحرب المنظمة التي تستوجب صلحاً أو تستلزم عهداً أو تقتضي مهادة .

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣ .

(٢) سورة المائدة، آية رقم ٢ .

فلما جاء الإسلام حدثت حروب في شبه الجزيرة العربية نفسها بين المسلمين والمشركون، وهي الحروب التي تمثلت في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، حتى انتشر الدين الجديد ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ولم تكن هذه الغزوات اعتداء، ولكنها كانت دفاعاً عن الدعوة الجديدة وحماية لها من أذى الذين وقفوا في سبيلها أو آذوا أصحابها واعتدوا عليها ثم حدثت بعد ذلك الفتوحات التي اتجهت نحو الإمبراطوريتين الكبيرتين : الفارسية والرومانية، وهي حروب اقتضت قيام سلسلة من العهود والمهادنات بين الغالبيين والمغلوبين .

وظل تاريخ الدولة الإسلامية يتراوح بين مد الحروب وجزرها قرابة ثلاثة عشر قرناً من الزمان وخاصة حينما التقوا بالأسبان في شبه جزيرة الأندلس، وبالصليبيين في مصر والشام .

وقد التقى المسلمون مع الأوروبيين في زحف آخر على يد السلاطين من بنى عثمان، وكانت راية الإسلام تظل هذا الزحف في عهد الفاتحين المسلمين العثمانيين من أمثال السلطان محمد الفاتح الذي فتح بلجراد سنة ١٥٢١، وفتح رودس سنة ١٥٢٩، واتجه إلى النمسا حتى بلغ عاصمتها فيينا سنة ١٥٢٩، ولكن رداءة الجو اضطرتته إلى فك الحصار عنها (١) .

وكانت المعاهدات قبل تدوين الدواوين تكتب في مشهد من الطرفين المتعاقدين، فيملي المملي، ويكتب الكاتب، ويمضي المتعاقدان ويشهد الشهود،

(١) محمد عبد الغني حسن، المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة،



ويجرى ذلك كله في جلسة واحدة، كما حدث في صلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش. فلما دونت الدواوين، اختص بكتابة المعاهدات والمهادنات كبار الكتاب في الدولة، ووضع لها من الشروط، ورسوم الكتابة، وقواعد العقد، وصيغ التعبير، وأصول التحرير ما جعلها صناعة وجاز لنائب الخليفة أو القائد أن يمضيها نيابة عن منيبه. وجاز أن تحمل نسخة من المعاهدة إلى مقر الطرف الثاني مع الرسل والسفراء لإقرارها والتصديق عليها، كما حدث بين المعتمد بن عباد ملك أشبليه بالأندلس، وألفونس السادس ملك قشتالة في القرن الحادي عشر الميلادي فقد بعث المعتمد سفيره ابن عمار وكان حاذقاً في السياسة إلى الملك ألفونس لينوب عنه في عقد معاهدة معه ليعاون ألفونس الأسباني ابن عباد العربي على خصومه من المسلمين نظير مبلغ كبير من المال يدفعه له، وعلى ألا يتعرض له في انقضاضه على إمارة طليطه. وقد نجح السفير العربي في إبرام هذه المعاهدة. والواقع أن اشتراك السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين بشكل عام في إبرام المعاهدات الدولية - على هذا النحو المتقدم - أمر يجرى عليه أيضاً القانون الدولي العام المعاصر. وإذا كانت المعاهدات، وعلى الأخص معاهدات السلام يجرى الإشهاد عليها من طرف ثالث، فإن المعاهدات الإسلامية لم تخل من الإشهاد عليها وإثبات ذلك في ذيل المعاهدة وهو ما حدث في صلح الحديبية حيث أشهد الرسول صلى الله عليه وسلم رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين. كما حدث الإشهاد على صلح بابلين، ومصالحات الشام وفارس.

وكان المسلمون أحرص الناس على حفظ عهودهم والوفاء بها، وهو حرص أكدته الشريعة الإسلامية وأوجبته، ومن هنا نرى في تاريخ المعاهدات الإسلامية حرصاً شديداً على الوفاء بنصوصها والقيام بتعهداتها لقوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾<sup>(١)</sup> وقوله جل شأنه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى إبرام العديد من المعاهدات بين الدولة الإسلامية والدول الأوربية إلى انتقال الكثير من قواعد القانون الدولي الإسلامي إلى القانون الدولي العام الأوربي الذي ساهمت الكنيسة في نشأته .

## ٢- المبعوثون الدبلوماسيون :

يعتبر تبادل البعثات الدبلوماسية - في إطار القانون الدولي المعاصر - من الحقوق المترتبة على تمتع الوحدات الدولية بالشخصية القانونية الدولية وبالتالي فإن الدول - كاملة السيادة - تستطيع أن ترسل وتستقبل البعثات الدبلوماسية الدائمة والمؤقتة . فهل عرفت الشريعة الإسلامية هذا النظام، وما أثر ذلك على القانون الدولي العام الأوربي المولد المسيحي النزعة؟ .

(١) سورة الإسراء، آية ٣٥ .

(٢) سورة النحل، الآية رقم ٩١ .

(٣) سورة المائدة، الآية رقم ١ .

في البداية أود الإشارة إلى أن الدولة الإسلامية -الأولى - غدت بعد فتح مكة قوة هامة في الجزيرة العربية، اكتملت فيها دعائم القوة الحربية، والمهارة السياسية والمثل الإنسانية والأخلاقية فقد أثبتت قوتها الحربية في أكثر من مناسبة مع قريش وسواها وبرهنت على مهاراتها وحكمتها السياسية في عهد الحديبية الذي غدا فتحاً مبيناً للدولة الناشئة ، ودللت على مثلها وقيمها الإنسانية والأخلاقية يوم فتحت مكة ومن رئيسها "النبي صلى الله عليه وسلم" على أهلها قائلاً: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

ومنذ غدت الدولة الإسلامية -على هذا النحو - كثرت فيها البعثات وتوالت إليها الوفود، وأصبح فيها نواة حية لما يعرف بالتمثيل السياسي الذي يشكل أولى مظاهر السيادة والاستقلال في الدولة . فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم - في البداية - يبعث البعثات داعية إلى الدين الجديد، ومبشرة بالخلاص من ظلام الشرك والوثنية<sup>(١)</sup>.

وفي سبيل إقامة وحدة داخل الجزيرة العربية تقوم على وحدانية الله ونبذ العصبية القبلية، وتحقيقاً لعالمية الدين الجديد ونشر رسالته في العالمين كانت البعثات الإسلامية داخل الجزيرة العربية وخارجها ففي الداخل حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تحقيق نوع من الوحدة القبلية في شبه الجزيرة العربية تحت لوائه . وعلى الرغم من أن السير نحو تحقيق هذه الغاية المرجوة كان يغلب عليه إلى حد كبير النشاط التنظيمي والحربي، إلا أنه كان يتخلله نشاط لا يقل عنه أهميته في مجال العمل السياسي

(١) عبد الوهاب كثرية، الشرع الدولي في الإسلام، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٠١ .

والدبلوماسية، وكان الدافع لكل ذلك كسب المؤيدين والأنصار بكل الطرق الممكنة خاصة أن الإسلام تقوم رسالته على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " .

وفي كثير من الحالات لاقت البعث الدبلوماسية التي أرسلت إلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية نجاحاً كبيراً عن طريق الإقناع بالحسنى، ولم تكن في حاجة إلى العنف لتحقيق أهدافها . وتحدث المصادر التاريخية في إسهاب عن أخبار هذه البعث التي لم تقتصر على شبه الجزيرة بل تعدتها- في كل المصادر - إلى خارج حدودها لتشمل بيزنطة وفارس ومصر والحبشة . وتتفق المصادر في الإخبار عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار ستة من أصحابه وأوكل إلى كل منهم مهمة تسليم رسالة وهؤلاء الصحابة هم :

- ١ - دحية بن خليفة الكلبي أرسل إلى قيصر عن طريق حاكم بصرى .
  - ٢ - عبد الله بن حذافة السلمي إلى كسرى .
  - ٣ - عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة .
  - ٤ - حاطب بن أبي بلعته اللخمي إلى المقوقس حاكم الإسكندرية .
  - ٥ - شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن شمر الغساني .
  - ٦ - سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي شيخ اليمامة<sup>(١)</sup> .
- والواقع أن التمثيل الدبلوماسي يعنى بالاتصالات، السلمية الرسمية بين الدول، والعوامل التي تدفع كلا منها لإقامة هذه الاتصالات، كما يعنى

(١) راجع عون الشريف قاسم، دبلوماسية محمد، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم ص ٥٧ - ٥٨ .

بالقواعد التي يقوم عليها هذا النظام، وكيفية إدارة الشؤون الدولية عن طريق المراسلات الدبلوماسية والإعداد لعقد المعاهدات والاتفاقيات من أجل المصالح المشتركة . ومما تجدر الإشارة إليه أن الدبلوماسية بما لها من طابع وخصائص دولية، فإنها ترتبط في نظمها وقواعدها وأحكامها بالتشريع والقوانين والأوضاع الداخلية في كل دولة، كما ترتبط بمشاكلها الخارجية<sup>(١)</sup> .

والذي يسبر غور الدبلوماسية الإسلامية يجد أنها قد خرجت عن الحدود التي عرفها العصر الجاهلي، حيث أسست المبادئ وأصلت النظم، وانطلقت تترسما وتلتزم بها في منهج حياتها، وميادين احتكاكها بصورة تطبيقية فريدة لأن الذي شرعها هو الله سبحانه وتعالى، وقامت على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم ليكون للعاملين بشيراً ونذيراً .

وبعد وفاته- صلى الله عليه وسلم- تبادل أبو بكر وعمر السفراء مع قيصر الروم أثناء خلافتيهما، وكان أساس إرسال سفرائهما هو توطيد أركان الدولة الإسلامية وتأمين علاقاتها مع الدولة الرومانية<sup>(٢)</sup> .

وقد قامت الدبلوماسية الإسلامية في صدر الإسلام (عهدي الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ) بدور فعال في نشر الإسلام، وأداة لتنظيم الاجتماعات، وعقد المعاهدات ... الخ .

(١) دكتور عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١٥٠ .

(٢) د . محمد الصادق عفيفي : تطور التبادل الدبلوماسي في الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،

١٩٨٦، ص ٣٣ .

وقد ذكر محمد حميد الله الحيدر أبادي في كتابه " مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة " مجموعة من صور الرسائل الدبلوماسية .

وقد لعبت الدبلوماسية الإسلامية دوراً كبيراً في السلم والحرب، فبالإضافة إلى نشر تعاليم الدين الإسلامي والتمكين له في الأرض، وبسط سلطانه، وبيان أوجه مبادئه كانت تقوم بدور فعال في عقد الهدنة، وفداء الأسرى، وتبادل المعرفة، وتحقيق المصالح المشتركة .

وظل هذا حال الدبلوماسية الإسلامية في العصر الأموي، إلا أن التغيير الذي طرأ في هذا العصر كان مقصوراً على الجوانب الفنية التي يمكن أن تتمثلها في أسلوب تلك السفارات وطابعها وتنظيمها، إذ كان استمرار الحروب بين الدولة الإسلامية ودولة الروم على حد تعبير ابن الفراء لا يسمح بأكثر من تبادل السفارات لعقد معاهدات الهدنة أو تنظيم فترات السلم . وفي فترات السلام بين الدولتين كانت هناك بعض المراسلات الودية ذات الطابع الثقافي .

وعندما دخل العصر العباسي مرت الدبلوماسية الإسلامية بتطورات جذرية، حيث بلغت الدولة الإسلامية مركزاً قوياً مما دفع الدول القائمة في ذلك الوقت إلى توثيق عري الارتباط بها . وكان للتقدم الحضاري أثره في رقي الدولة وازدهارها في شتى المجالات مما جعلها تقوم بتحقيق أغراض متعددة، وكان من السبل التي استخدمت فيها الدبلوماسية في العصر العباسي ذلك الدور الملحوظ الذي لعبته في توثيق العلاقات الثقافية والتجارية والسياسية بينها وبين الدول الأجنبية.

وغدت بغداد في الذروة خلال عصر العباسيين، فقد كانت المركز الذي يشع على العالم بكل أفضاله، فكانت الوفود والسفارات تخرج منه وتأتي إليه من سائر الدول المختلفة وفي طليعة الدول بلاد الروم والبلغار والصقالبة والصين .

وحينما قويت شوكة الدولة الأموية الثانية بالأندلس وخشيت الدولة العباسية أمرها انطلقت السفارات من قرطبة، ومن بغداد إلى دولة الفرنجة والقسطنطينية، لأن دولة الفرنجة القائمة في جنوب فرنسا آنذاك والمتاخمة للأندلس كانت تتاوى بيزنطة الشرقية، مما اضطرها إلى تأمين موقفها السياسي وذلك بتوثيق الصلات مع الدولة العباسية. وكانت الدولة العباسية بدورها تبحث عن الوسائل التي تحد من شوكة الأمويين في الأندلس، بعد أن أخفقت في القضاء عليها، مما دعاها إلى أن تفكر من ناحيتها في التحالف مع دولة الفرنجة المتاخمة للأندلس، وتحقيقاً لهذه الموازنة في السياسة الدولية قامت السفارات من بغداد في سبيل تحقيق المصالح لمشاركة . ومن ذلك تبادل السفارات بين هارون الرشيد ( ١٧٠ - ١٩٣ ) وشارلمان<sup>(١)</sup> .

وقد ترعرعت الدبلوماسية الإسلامية في العصر العباسي وأخذت أبعاداً جديدة أكثر وضوحاً وتأثيراً على الأحداث واقتترنت بشروط ومراسم وفلسفة أخلاقية تعكس تعاليم الإسلام كنظام متكامل ينظم المعاملات كما ينظم العبادات .

ونستطيع أن نلمح أهم معالم الدبلوماسية الإسلامية فيما يلي :

(١) المرجع السابق، ص ٣٧ - ٣٨ .

## التحديات القانونية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل

١ - كان السفير شخصية مميزة يختاره الخليفة بنفسه من ذوي الوسامة ونفاذ الرأي وحصافة العقل والجرأة والحلم والقدرة على كظم الغيظ والثقافة والأصل النبيل.

ومثل هذه الشروط المطلوبة في المبعوث الدبلوماسي قد تأثر بها القانون الدولي الأوروبي وأصلح الأوروبيون من شأن الدبلوماسية باختيار أفضل العناصر لهذه المهمة، إذ أن الرومان كان يجبرون الناس على قبول منصب السفارة لتدنية، ولعدم رعاية الدولة لسفيرها وحتى إمداده بما يقيه شر العوز والفاقة، ولم يتغير الحال كثيراً في أوروبا حتى القرن الخامس عشر، فقد أرسل لويس الحادي عشر ملك فرنسا حلاقه كسفير توفيراً للنفقات<sup>(١)</sup>.

٢ - لقد انعكست النظافة كجزء من الإيمان على السفراء المسلمين حيث كان يظهرون بأبهى حلة وأجمل منظر ترتاح العيون لرؤيتهم فيجذبون إليهم المستمعين ويرتاحون لمجالستهم والإصغاء إليهم فتتفد الرسالة إلى نفوسهم . وعلى العكس من ذلك فقد كان السفراء الأوروبيون يثيرون اشمئزاز الملوك من رائحتهم الكريهة ومظهرهم المؤذي للعيون حتى إن الملك هنري السابع أمر رجال البلاط بعدم السماح للسفراء بمقابلته إلا بعد استحمامهم وتغيير ملابسهم " بعد أن رأى القمل يدي على ملابسهم " ويحدثنا التاريخ عن الأوامر التي

(١) د . عدنان البكري، العلاقات الدبلوماسية والفصلية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٠.



أصدرها السلطان صلاح الدين الأيوبي باغتسال سفراء الفرنجة وأمرائهم قبل مقابلاته في خيمته، وقد عرفوا الصابون باحتكاكهم بالعرب في الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> .

ومن هنا كان للإسلام بتعاليمه التي تحث على النظافة والطهارة، أثره في الارتقاء بالدبلوماسية - في الغرب - وتحسين مظهره .

٣ - إكرام السفراء الأجانب والاحتفاء بهم باعتباره من الخصال العربية القديمة التي انعكست بدورها على المراسم الدبلوماسية عند العباسيين وغيرهم من الحكام المسلمين، حيث أحيط استقبال السفراء بمراسم وطقوس متطورة من اللحظة التي تطأ فيها أقدامهم إقليم الدولة على مشارف الحدود . وقد أولى الخلفاء العباسيون أنفسهم هذه المراسم اهتمامهم الخاص فكانوا يكفلون أحد قواد الجيش أو القضاة - نيابة عنهم - باستقبال الرسل ( السفراء ) . وقد جرت العادة على إقامة مظاهر الزينة وإحاطة موكب السفراء بالأبهة، يصاحب ذلك تجمهر الناس في طريق الموكب للاشتراك في الترحيب . وكانت تخصص للرسل دار للضيافة كانت تسمى دار " صاعد " يحلون بها طوال مكوثهم ويتوافر فيها كل أسباب الراحة ورغد العيش وبعد فترة من الانسجام يزورهم الوزير المختص لإطلاعهم على مراسم المثل بين

(١) المرجع السابق، ذات الموضوع .

يدي الخليفة، وتحديد موعد لمقابلته، وهو ما أصطلح عليه حديثاً " تقديم أوراق الاعتماد "

وبالتالي كان للدبلوماسية الإسلامية أثرها في تطور القانون الدولي الدبلوماسي - ليس بالنسبة للقواعد الموضوعية فحسب ولكن أيضاً بالنسبة للأمور الشكلية والإجرائية، خاصة فيما يتعلق بالمراسم.

٤ - كان السفراء يتمتعون قبل الإسلام بالأمان وحرمة أشخاصهم إذ كان ذلك عرفاً مقررأ ولا زال حتى الآن، ولم يصر قاعدة تشريعية دولية إلا بعد إبرام اتفاقية فيينا عام ١٩٦١ للعلاقات والحصانات الدبلوماسية، إلا أنه اكتسب صبغة القاعدة القانونية التشريعية - في الإسلام - منذ ما يزيد على ١٤٠٠ عام .

فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما أتاه رسولا مسيلمة الكذاب، قال صلى الله عليه وسلم : " آمنت بالله ورسوله لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما "، وفي رواية " لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما " فهذا نص في حرمة شخص المبعوث الدبلوماسي، إذ أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم هذا قد نقل حرمة السفراء من القاعدة العرفية إلى القاعدة التشريعية، وبالتالي صاغ صلى الله عليه وسلم حرمة السفراء صياغة شرعية لا يجوز انتهاكها باعتبار ذلك قاعدة تشريعية إسلامية .

وقد اقتدى الحكام المسلمون في مختلف عصور الدولة الإسلامية بنبيهم صلى الله عليه وسلم ومنحوا الأمان للرسل والسفراء

حتى ولو لم يراع الأعداء المعاملة بالمثل، فقد رفض صلاح الدين الأيوبي - مثلاً - قتل رسول الفرنجة على الرغم من علمه بقتلهم لرسله إليهم.

ومن هنا كان للإسلام أثره في إرساء قواعد الدبلوماسية في القانون الدولي الأوروبي، إذ أن الملوك والأمراء عندما عادوا إلى أوروبا - بعد الحروب الصليبية على وجه الخصوص - أدركوا ما عليه المجتمع الإسلامي - وقد عايشوه - أثناء الحرب - ولمسوا القواعد التي أرساها الإسلام بشأن معاملة الرسل والسفراء، وبالتالي أصبحت هذه القواعد وغيرها تجد طريقها في القانون الدولي العام الأوروبي .

### أثر الإسلام في القانون الدولي المعاصر :

نستطيع أن نلمح بوضوح أثر الإسلام في القانون الدولي المعاصر في العديد من المجالات : -

- ١ - لقد أرسى الإسلام منذ فجره أسس العلاقات الدولية في السلم والحرب، وقام على أساس أن الأصل في العلاقات الدولية هو السلم، وهو ما اتضح من النصوص العديدة في القرآن والسنة مما سبق ذكره، وبالتالي كانت المعاهدات والسفارات أدوات لتحقيق السلم وتحقيق التعاون بين الدولة الإسلامية والدول الأجنبية، وبناء عليه، فإن حفظ السلم والأمن الدولي وتنمية العلاقات الودية وتحقيق التعاون الدولي وغيرها من المبادئ التي قامت عليها الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ قد وجدت هذه المبادئ منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة عندما جاء

الإسلام داعياً إلى السلام والرحمة والتعاون على البر والتقوى، على النحو الذي أوضحناه .

- ٢ - إن الإسلام قبل سبق القانون الدولي المعاصر بوضع التشريعات التي تكفل للسفراء حرمتهم، وللأجانب - بشكل عام - حقوقهم وحياتهم .
- ٣ - لقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهود والمواثيق، وحذر من انتهاكها قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾<sup>(١)</sup>، وقد وجدت هذه القاعدة مكانها في القانون الدولي المعاصر فيما يعرف بالقوة الملزمة للمعاهدات، بمعنى أن انتهاك المعاهدة يترتب عليه نشوء المسؤولية الدولية قبل الطرف الذي أخل بالتزاماته الاتفاقية .
- ٤ - على الرغم من أن القانون الدولي المعاصر قد أولى اهتماماً منذ نهاية القرن الماضي بحقوق الإنسان أثناء النزاعات المسلحة إلا أنه لم يهتم اهتماماً حقيقياً بحقوق الإنسان أثناء السلم إلا منذ عام ١٩٤٨ بعد صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان . وقد أقر الإسلام هذه الحقوق منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة وبطريقة تفوق ما وصل إليه القانون الدولي المعاصر، إذ أنه على الرغم من أن القانون الدولي اشتمل على العديد من الوثائق المتضمنة لحقوق الإنسان في زمني السلم والحرب، إلا أن هذه الوثائق لا تكفل في حد ذاتها تحقيق هذه الحقوق

(١) سورة المائدة، آية ١ .

والحريات على أرض الواقع، حتى إن الدول الكبرى التي تدعى حمايتها لحقوق الإنسان لا تتدخل لحمايته إلا إذا كان ذلك في إطار استراتيجية قومية لتلك الدول تحقق لها مصالح معينة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو عسكرية... الخ، لكن الأمر في الإسلام يركز على المبادئ الأخلاقية البحتة، فالدولة يتعين عليها شرعاً أن يرفعى حاكمها حقوق الإنسان مسلماً كان أو غير مسلم، مواطناً أو أجنبياً، في وقت السلم أو في وقت الحرب، إذا أن الحاكم المسلم مكلف شرعاً بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها العامة التي منها احترام حقوق الإنسان بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو الأصل الاجتماعي.. الخ، والخطاب الإسلامي - في هذا الشأن - ليس موجهاً للحكام فحسب بل للمحكومين " الأمة " أيضاً، إذ أن الخطاب يرد في القرآن بصيغة الجمع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وبالتالي فإن حقوق الإنسان يلتزم الجميع باحترامها حكماً ومحكومين، وقد وضع الإسلام ضوابط هذه الحقوق والحريات في

(١) سورة المائدة آية ١ .

(٢) سورة المائدة آية ٨ .

إطار قاعدة " لا ضرر ولا ضرار "، ومما يكفل تطبيق هذه الحقوق والحريات أن انتهاكها تنشأ عنه مسئوليتان مسئولية دنيوية تتمثل في العقوبات التي وضعها الشارع والتي يلتزم الحاكم بتنفيذها في حال ثبوت الانتهاكات . أما المسئولية الثانية فهي مسئولية أخروية، حيث يُسأل المسلم - الذي يجور أو يعتدي على حقوق وحريات الآخرين - أمام المولى جل جلاله يوم القيامة، وهي مسئولية لا يستطيع التهرب أو التصل منها لأنه سيحاكم أمام عليم خبير لا تخفى عليه خافية ولا تدخل عليه الحيل وهو ما يحمل المسلمين على مراعاة حقوقهم فيما بينهم وحقوق غيرهم من الأجانب " المستأمنين " والذميين .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام قد راعى حقوق وحريات كافة الناس : المرأة، الرجل، الطفل، الشباب، الأجانب، الذميين، سواء الحقوق السياسية أو المدنية أو الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٥ - إذا كان تحريم استخدام القوة في العلاقات الدولية أصبح من القواعد الأمرة في القانون الدولي المعاصر ولا تستخدم القوة المسلحة إلا في حالات استثنائية للضرورة كما في حالتى الدفاع الشرعى واستخدام تدابير الأمن الجماعى، فإن هذه القاعدة قد وجدت جذورها في الإسلام، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاتل قط إلا مضطراً، وكان يؤثر السلم ما وجد إلى ذلك سبيلاً قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا

لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴿١﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .  
وبالتالي فإن حرب الاعتداء قد حرمها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قبل أن تصبح محظورة في القانون الدولي المعاصر .

٦ - إذا كان ميثاق الأمم المتحدة قد اعتبر تنمية العلاقات الودية بين الدول الأعضاء أحد مبادئ هذه المنظمة العالمية وبحيث تقوم العلاقات الودية بين الدول الأعضاء على أساس المبدأ الذي يقضى بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها الحق في تقرير مصيرها، وكذلك اتخاذ التدابير الملائمة لتعزيز السلم العالمي نقول، إذا كان هذا المبدأ قد ارتكزت عليه - أخيراً المنظمة الدولية في سعيها نحو تحقيق أهدافها، فإن الإسلام منذ أكثر من ١٤٠٠ عام قد وضع هذا المبدأ في إطار أخلاقي قائم على اعتبارات الأخوة الإنسانية، وحسن الجوار، والعدالة، وتقرير المصير .

فقد سبق أن ذكرنا أن الإسلام يعتبر الناس جميعاً - مسلمين وغير مسلمين - أمة واحدة لا تفرقها الألوان، ولا الأقاليم، ولا الجنسية قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

(١) سورة الأنفال، الآية ٦١ .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ وبناء عليه، فما دام أن البشرية كلها تشترك في الأخوة الإنسانية، فإن الود ينبغي أن يكون أساس العلاقات الدولية بين كافة أقطار العالم، وإن الإسلام لا ينهي عن بر كل من لا يعتدي على المسلمين، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

وإن المودة لا يقطعها الحرب، ولا الاختلاف، وإنه يروى أنه في مدة الحديبية "فترة الهدنة بين المسلمين وغيرهم" بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أصابتهم جائحة، فأرسل مع حاطب بن أبي بلعته إلى أبي سفيان خمسمائة دينار ليشتري بها قمحاً ويوزعها على فقراء قريش (٣).

هذا وقد ضمن الإسلام حق تقرير المصير لمن يخالفونه فقرّر أنه لا

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) سورة الممتحنة الآيات ٨، ٩.

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص ٤٢.



يجوز لمسلم أن يخضع لدولة غير إسلامية ولا يجوز للمسلمين أن ينضوا تحت لواء دولة غير إسلامية لأنهم لا يتمكنون من تنفيذ أحكام دينهم في الأسرة والمعاملات الإسلامية، والزواج الاجتماعية إلا في ظل حاكم مسلم يستمد حكمه من القرآن والسنة لا من أوضاع الناس، لأن الإسلام ككل الأديان جاء لإصلاح أوضاع الناس، لا للخضوع لها .

وإذا حدث القتال بين المسلمين وغيرهم - نتيجة اعتداء غير المسلمين - فحق الشعوب في تقرير مصيرهم ثابت، ولذلك كان القائد المسلم الذي يرسله النبي صلى الله عليه وسلم للقتال - بسبب الاعتداء على المسلمين - يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال فإذا اختاروا العهد كان واجباً، وإذا اختاروا القتال كان بسبب ما اختاروا ويثبت حق تقرير المصير حتى في ميدان القتال وبعد النصر، يروى أن قتيبة بن مسلم الباهلي فتح بعض أقاليم سمرقند من غير أن يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال فشكا أهل الإقليم إلى الحاكم العادل الذي نهج منهاج الراشدين عمر بن عبد العزيز أن قتيبة قاتلهم قبل أن يخيرهم ذلك التخيير ليقرروا مصيرهم، فأرسل الخليفة إلى القاضي ليسمع هذه الشكوى ويحققها فتبين له صدقها، فأصدر أمره إلى جنود المسلمين بأن يخرجوا من البلد الذي فتحوه، ويعودوا إلى ثكناتهم ثم خير أولئك بين هذه الأمور الثلاثة ليقرروا مصيرهم فاختاروا العهد، ومنهم من اختار الإسلام الذي سمح بذلك التخيير بعد الفتح والانتصار<sup>(١)</sup>.